

اللغة

بين الكلمتين: المسموعة والمقروءة

١

مرّت على الإنسان أطوار طويلة قبل أن يكتشف الكتابة ويعبر عن أفكاره بالحروف المقروءة، وفي هذه الأطوار كان يتخذ الكلمة الأدبية المسموعة أدواته في صوغ خواطره ومشاعره فهو يتغنّى بها وينشد الأناشيد، وهو يقصّ بها بعض ما وقع له من حوادث في صيد حيوان من الحيوانات أو في قتاله مع بعض جيرانه، وقد يحكى بها بعض الأساطير عن آلهة الجبال والأنهار والزرع.

وكان الشعر أول فرع أدبي ازدهر في شجرة اللغة، لأنه لغة الوجدان والأحاسيس الفطرية، وربما كانت نشأته أسبق من نشأة الكلمات ذاتها، فقد كان الإنسان قبل اتخاذها ترجماً لخلجاته وعواطفه، يعبر عنها بصيحات تصوّر غضبه أو رضاه. ومع مرور الزمن أخذت تتحوّل الصيحات إلى حروف وكلمات يحاكي بها أصوات الطبيعة من حوله، مما وفّر لها أنغاماً موسيقية. وما زالت هذه الأنغام تقترب بالكلمات، وتختلف قلّة وكثرة في كمية ما تحمله من النغم الصوتي، حتى تكون الشعر بإيقاعاته الموسيقية المتكاملة.

ولم تعرف لغة من اللغات تكامل الموسيقى في شعرها كما عرفت ذلك اللغة العربية منذ عصرها الجاهلي في شعرها الموزون المقفى المؤلف في وحدات موسيقية متقابلة تسمى الأبيات، وفيها يلتزم الشاعر بوزن أو لحن واحد يرتبط به في جميع الأبيات كما يلتزم بحرف واحد في نهاية الأبيات يسمى الروي أو القافية. وهذا النظام اللحني المثالي إنما نفذ إليه الشاعر عن طريق إنشاده شعره ومحاولته إرضاء سامعيه بتوفير كل ما يستطيع من أنغام لأشعاره، حتى يطربوا له ويتأثروا أشد ما يكون التأثير.